

الوافي في الوفيات

وكتب إلى العلامة شهاب الدين أبي الثناء محمود C تعالى من القاهرة : يقبل الأرض لا أبعد إلا عن الرُّوَّاد ساحتها ولا أفقد الورَّاد سماحتها ولا زالت محوطةً بعنايةٍ في ظعنها وإقامتها منوطةً بامتداد الذِّعم وإدامتها مرفوعةً إلى غايةٍ يقصر النجم أن يساميتها وتضحى الشمس دون وساميتها . ولا برحت رجال الرجاء تحطُّ برحابها وجنائب الثناء تحثُّ إلى جنابها ونتائج الألباب تهدي لبابها . وينهي شوقه الذي تكاد حصة القلب منه تذوب إلى لثم تلك اليد التي تعلم منها الغيث كيف يصوب . والأنعم التي وسمت بها مغناي وهو جديب والمكارم التي تجفُّ ضروع المزن وهي حلوب . حيث وضوح محجَّة الحجى واتساع أرجاء الرجا ومهب رخاء الرخا وانتظام سحب السخاء . إذ ظلال الآداب وارفة وشمس الأفضال طالعة ليست بكاسفة . فرعى إلا وحيٍّ وسقى وصان وحمى ووقى . ولا عدمت أندية الآداب أنداء ذلك السحاب ولا غاب عن غاب الأقلام بأس ذلك الصِّرغام ما شوق العليل إلى الشِّفا والحجيج إلى الصِّفا والمشرّد إلى الوطن والمسهرّدد إلى الوسن والظمآن إلى الماء والحرث إلى أسماء . بأكثر كلفاً ولا أشد شغفاً من المملوك إلى اقتباس تلك الفوائد والتماس تلك الفرائد قرَّبَ إلا مغناها ما أسناها ولا أبعد مسراها فما أسراها إنها العقائل الشريفة بشرف القائل ولها من نفسها طرب كما في ابنة العنب : من الخفيف .

لا تخافي إن غبت أن نتناسا ... ك ولا إن واصلتنا أن نملأ .

إن تغيبني عنا فسقياً ورعياً ... أو تلمّني بنا فأهلاً وسهلاً .

أيها السيد وما خلت البقاع والإمام الذي انعقد على فضله الإجماع والماجد الذي محامده ملء الأبصار والأفواه والأسماع . صفحاً عن قريحةٍ ما أومضت حتى خبت ولا مضت حتى كبت ولا مضت حتى نبت ولا امتدَّ لها ظل العيش حتى تقلَّص ولا ساغ لها ورده حتى غصَّص وتغصَّص . ولا أطلَّ سحابه حتى أقلع ولا أطلَّ حتى تفشَّع ولا سلَّم بنان بيانها حتى ودَّع . كرَّرت عليها الكروب وتخطَّت إليها الخطوب وتوالت عليها الهموم فلم تدع لها همَّه ورمتها الحوادث بكل ملمَّة . تسوَّد القلب وتبيّض اللِّمَّة . فلا غرو إن أصبحت كليلَةً من الأفراح ودمنةً من الأتراح . تدعى ولا تجيب وما ذاك بعجيب . إن شاء المملوك منها إنشاءً أبت إلى إباءٍ وقال : النجاة النجاة . فيضاعتك مزجاة . عدَّ عن هذا السبيل لست من هذا القبيل . فقلت لما أعطت منعها وأكثرت ردَّها وردعها : لا يكلِّف إلا نفسها . إن الهدايا على مقدار مهديها . ولما شجع المملوك نفسه بهذه المقالة شفع هذه الرسالة بأبياتٍ تباريها في الثناء وتجاريتها في حلبة الدعاء . وأقدم على هذا العرض الأدنى على ذلك

الجوهر الأسنى . وقابل ذلك المقام بهذا المقال بعد أن استقال . وقال : من الطويل .

سلا قلبه إن كان عن حيكـم سلا ... وهل مال يوماً عن هوى ذلك الملا .

وهل زال من بعد البعاد وداده ... وهل حال عن تلك المعاطف والحلا .

سقى الله أيام الوصال وعيشنا ... رقيق الحواشي لا يـنـغـصـم بالقلـى .

لياليّـ روض الجزع فيهنّـ ما ذوى ... ومعهـد ليلـى الأخيـلية ما خلا .

سحبت بها ذيل المسرّـة والصّـبا ... وحالفت لذّـاتٍ وخالفت عذّـلا .

لقد طال ليلي بعدهنّـ كأنه ... بسود فروع الغانيات توصّـلا .

فكم كلفٍ مثلي بمنعرج اللّـوى ... تكلف أثقال الهوى وتحمّـلا .

له مقلةٌ عبرى تجود بمائها ... وقلبٌ من البين المجدّـ تجدّـلا .

ما كلّـ جفنٍ مثل جفني مسهّـد ... ولا كلّـ قلبٍ مثل قلبي مبتلى .

منها : .

ولّـما وقفنا بالمطايا عشيةً ... على الطلل البالي وقلنا له الا .

أذرنّا لأخلاف الدموع فأحلفت ... وفاضت إلى أن انبت العشب والكلـا .

منها : .

وعاذلةٍ في سوء حظي جهالةً ... ولا ذنب لي في سوء حظي لتعذلا .

ولو يصلح الإنسان بالجدّـ حظّـه ... لأوسعت في إصلاح حالي التّـحيّـلا .

وقائلةٍ قد جلّـ منصب جلّـقٍ ... فقلت لها : ما ذاك بدعٌ وكيف لا ؟ !